من الحياة . . صـور ومشـاعر

الأخ ع. حسان

في حديقة من حدائق مدينة (..) في ألمانيا الغربية حيث كنت أستشفي هناك .. رأيت في أحد الممرات الجانبية رجلاً عجوزاً متقارِبَ الْخَطْوِ يابسَ الجسم قد بسط يده إلى الأمام مفتوحة الكفّ إلى الأعلى

واقتربتْ خطواتي منه فنظرتُ إلى كفه المفتوحة فإذا عليها بعض الحبّ وإذا عصفور جميل يهوِّم حولها ويهم بـــأن يسقط عليها

وأدهشني المنظر وأعجبني فحييتُ الرجل عندما صرت بجانبه بالتحية المعتادة في هذه البلاد

نظر الرجل إليَّ بعينيه اللتين لا تكادان تبصران وردَّ تحيتي بتردد وارتياب

قلت له : لقد سرني وأعجبني ما رأيته منك من هذه الروح الإنسانية ومن هذه المحبة لهذه المخلوقـــات الجميلـــة الضعيفة

قال لي الرجل وهو يهز رأسه بحزن :

لقد انقطعت روابطي بالعالم الإنساني من حولي و لم يعد لي إلاّ هذه المخلوقات وأمثالها آنس بها وأشعر ، بما تولِّدهُ عندي من المشاعر ، أنني ما أزال في قيد الحياة

قلت له : هل تعيش وحيدا ؟ أليس لك أبناء ؟

قال : .. إنّ لي أنباء وأحفاداً ولكنهم لم يعودوا يزورونني أو يسألون عني من زمن طويل

إنني أعيش الآن في الملجأ المجاور لهذه الحديقة .. وأجد في الملجأ الطعام والشراب والخدمات المادية الـــضرورية .. ولكنني لا أجد دفء الأسرة والمحبة والعلاقات الإنسانية العفوية الصميمية

إنني أحس بأن دوري في الحياة وأن وجودي فيها قد انتهى .. وأنهم قد وضعوني هنا ريثما ألفظ آخـــر أنفاســـي ويتم لهم أن يتخلصوا مني نهائياً ويودعوني القبر .. فأنا أنتظر وحيداً حزيناً هذا اليوم

وعرف الرجل من الحديث أنني غريب وأنني مسلم ، فسألني عن أحوال أمثاله عندنا فأخبرته بما لا يزال باقياً بعضُه في بلادنا من تعاليم الإسلام وروحه وأخلاقه وعاداته في هذا المجال ، فقال لي : وددت لو أنني ولـــدت في بلادكـــم وعشت معكم .. لقد كنت وجدت الآن في شيخوختي وضعفي القلبَ الوفي الذي يسعني ، والصدر الحنون الـــذي يحدب عليّ ..

إنّ الحضارة الحقيقية ليست هي هذه الإنجازات والمظاهر المادية المتقدمة التي تخطف عقولكم وأبصاركم في هـــذه البلاد وأمثالها من بلاد الغرب ، ولكنها قبل ذلك وبعد ذلك هي المبادئ والقيم والعلاقات الإنسانية القائمة على التوادِّ والتعاطف والتراحم والتعاون على الخير ..

وتابع الرجل طريقه ويده مبسوطة مفتوحة الكف .. إلى مصيره الظلم المقسوم له وللكثير من أمثاله في الغرب .. وتابعت طريقي وأنا أعمق شعوراً بحاجة الغرب المتقدم ، وحاجة العالم كله إلى الإسلام ، وإلى قيمه ومنهجه الإلهي ، الذي يتنكر له في بلادنا المتنكرون ، وينسلخ عنه المنسلخون المفتونون ، لنظـــرتهم الـــسطحيةِ الـــضيقةِ القـــصيرة ، واغترارهم وانشغالهم بظواهر الأمور